نظرة تحليلية في الفصول و الغايات لأبي العلاء المعري

الدكتور علي گنجيان خناري*

الدكتور عبدالأحد غيبي**

فرشيد فرجزاده***

الملخص

لقد ترك المعري عدداً ملحوظاً من المؤلفات والتصنيفات. من أهم آثاره المنثورة الذي يعتبر مصدراً قيماً في تاريخ الأدب العربي هو الفصول والغايات. هذه المقالة ستلقي الضوء على هذا الكتاب من ناحية الشكل والمضمون: الجرس والإيقاع والمفردات والخيال ونظم الجمل وطريقة التعبير والتصميم والبناء هي الموضوعات التي ستبحث عنها هذه المقالة بالتطرق إلى كتاب الفصول والغايات من حيث الشكل. وتسبيح العاقل وتمجيده وتسبيح غير العاقل هما الموضوعان الرئيسيان يشكلان اللذان محور البحث عن هذا الكتاب من حيث المضمون. وبما أنّ بعض الناقدين يعتقدون أنّ كتاب الفصول والغايات قد كتبه المعري معارضة لكلام الله فهذه المقالة تذود عن الكاتب بتقديم نموذج وأدلة تزيل غبار التهمة من ساحة الكتاب وكاتبه.

كلمات مفتاحية: الأدب العربي، أبوالعلاء المعري، الفصول والغايات.

---

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العلامة الطباطبائي، طهران.

** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة للشهيد المدني آذربيجان، إيران.

***ماجستير في اللغة العربية و آدابها.

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٥/٩ هـ.ش= ٢٠١١/٧/٣١م تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/١٩ = ٢٠١١/١٢/١٠م

المقدمة

إنّ كتاب الفصول والغايات من أهم كتب أبي العلاء النثرية إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. "وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف، لِأنّ فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً".[١]

"وهو منقسم إلى ثمانية و عشرين فصلاً وكلّ فصل لحرفٍ ينقسم إلى فِقَرٍ، وقد التزم أبوالعلاء في كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها في حرفين أَو أكثر والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ويكثر في هذا الكتاب من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم."[٢]، من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك وعلم النّجوم.

ينقسم العلماء والمحققون الذين أدلوا بآرائهم عن هذا الكتاب إلى أقسام: فريق منهم لم يروا الكتاب ولم يقرأوه، بل سمعوا عنه فقط، وفريق قرأوه ولم يفطنوا لما قصده المعري، وفريق آخر من الحُسّاد أساؤوا الظنّ بالمعري وطعنوا بكتابه بالمعارضة للقرآن بسبب تشاؤم صاحبه وزندقته ولعله بسبب أنّه سمّي الكتاب "الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات"[٣] ويعتقد بعضهم أن هذا الكتاب ألّفه المعري معارضةً للقرآن وتشبّهاً بنظمه.ومن المؤرخين وأصحاب التراجم الذين اتهموا المعري بمعارضته للقرآن هم حاجي خليفة (١٠١٧-١٠٦٨هـ) وشمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) وأبوالفرج ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) و...

يرى البعض أنّه قيل في تمجيد الله عزّ و جلَّ. يدلي الدكتور طه حسين برأيه في عدم معارضة المعري للقرآن الكريم قائلاً: "لو أردنا بمعارضة المعري للقرآن تأثّره به وسعيه

٤- جمع من المولفين، *تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه الرواة للقفطي*، ص٣٨.

[٢]- شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام*، ص ٣٣٠.

[٣]-المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

لتقليده به عندئذٍ هو عارضه لأنّ القرآن نموذج عالٍ للفنّ الأدبي الذي أعجب المعرّي فتأثّر به."[١] ويقول في موضع آخر من كتابه: "لا أحسب أن يكون قد فكر أبوالعلاء في مثل هذا الموضوع لأنّه كان أخشع من أن يرنو إلى هذه المرحلة وأفطن من أن يقوم بعملٍ لا سبيل إليه."[٢] ويقول شوقي ضيف "هذا كتاب جميعها وعظ ...قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى" كما يرى أن أبا العلاء لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه... والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى".[٣]

يستهدف هذا البحث دراسة كتاب الفصول والغايات من ناحية التصميم والبناء. ويبدأ بالتطرق الموجز إلى حياة أبي العلاء صاحب هذا الكتاب ثمّ يدرس الكتاب من ناحية الشكل فهنا يتكرس الكلام على الجرس والإيقاع ثمّ يذكر أنّ الجرس والإيقاع هما حصيلتا السجع السائد على الكتاب بنوعيه من المطرّف والمتوازي.

هذا البحث يشير إلى مبدأ الدقة لدى المعري الذي حثّه على اختيار أدقّ المفردات لأداء ما يختلج فيه من المعاني ثم يمعن النظر في الكتاب من منظار استخدام المعري للمفردات الغريبة غير المبتذلة ثم يسوق الكلام إلى أنّه قد اعتمد الجدّ عندما أراد أن يجد طريقة للتعبير عن معانيه وأفكاره ويسعى دائماً أن يتفادى الهزل في كلامه.

وثمة أفكار تلعب دور المُصمّم والبنّاء في كتابه وهي عبارة عن الاستغفار وذكر الله وذكر الموت والإشارة إلى الذنوب والإشارة إلى قدرة الله تبارك وتعالى والتقوى والحث عليها والحديث عن الدنيا.

---

[١]– طه حسين، *گفت وشنود فلسفي در زندان أبوالعلاء معرّي*، ترجمه حسين خديوجم (ترجمة مع أبي العلاء في سجنه)، ص٢٦٥.

[٢]– المصدر نفسه، ص٢٦٦.

[٣]– شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام*، ص ٣٢٩

وينتقل الكلام في المقالة بعد هذه البحوث إلى مضمون الفصول والغايات الذي يتقسّم إلى قسمين من تسبيح العاقل وتمجيده وتسبيح غير العاقل وتمجيده. و في القسم الأول يسبّح المعرّي ربّه على لسان شخص آخر وهو يُقرّ بعظمته جلّ و علا وفي القسم الأخير يخص كلامه بالحديث عن تسبيح الله وتمجيده على لسان غير الإنسان من الجماد والنبات والحيوان.

والهدف الآخر الذي يتبعه هذا البحث هو أنّه يريد أن يثبت أنّ المعري لم يقصد إلى معارضة القرآن الكريم بكتابه هذا لأنّه يحفل بذكر الله وتسبيحه على لسان العاقل وغير العاقل وكيف يسعى وراء هذه النوايا من مُلىء قلبه إيماناً ويقيناً ولذلك يصور لنا مشهداً رائعاً يمثل به الإنسان وغير الإنسان دور المُسبّح والمُمجّد لمن يسبح له ما في السموات وما في الأرض.

١- نظرة عابرة إلى حياة أبي العلاء المعرّي

"هو أحمد بن عبدا... بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داوود بن المطهر بن زياد ربيعة ا... بن انور بن اسحاق بن أرقم النعمان بن عدي بن غطفان بن عمر بن بريح بن جذيمة بن تيم ا... بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التنوخي المعري."[١] سمّاه والده أحمد لكنّه كرهه ورأى أنّ من الأفضل أن يكون اشتقاق اسمه من الذّم بدلاً من الحمد. حيث يقول:

و أحمد سمّاني كبيري قلّما فَعلتُ سوى ما أستحقّ به الذّما."[٢]

قد ولد المعري بمعرّة النعمان وبعد سنوات غادر مسقط رأسه إلى بغداد طلباً للعلم لكن مقامه هناك لم يستغرق طويلاً فعاد إلى المعرّة لسببين رئيسين: أحدهما "فقد أمّه التي كانت

[١]- أبو العباس شمس الدين بن خلّكان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، ج١، ص ١١٣.

[٢]- ابو العلاء المعري، *ديوان لزوم ما لايلزم*، ج ٢، ص ٣٠٧.

تتعهده، وفقد أسرته وفقد أصحابه الذين ألفهم وألفوه منذ الصّبا ورضى عنهم ورضوا عنه وثانيهما: أنّ أباالعلاء كان شديد الأنفة والإباء، وقد ضاق المال الذي اصطبحه إلى بغداد عن حاجاته الكثيرة في السفر ولم يستطع أن يستقدم غيره من المعرّة لبعد الشقة أو لعدم وجود ما يسدّ حاجته، كما أنّه لم يستطع أن يبذل ماء وجهه بسؤال أحد."[١]

وبعد فترة قصيرة من حياته أي في السّنة الرابعة من عمره أُصيب بِداء الجُدري وكفّ بصره منه. كان المعري مرهف الإحساس والشعور وإنَّ ما لقيه من أذى الدّهر وصعابه قد جعل الحياة مبغوضة إليه فاختار العُزلة في حياته والزهد عن الدنيا وزخارفها هو ما يسترعي انتباهنا عند التطرّق إلى حياته. قال القفطي عن موته: "وفي يوم الجُمُعة الثالث عشر من شهر ربيع الاول يعني من سنة تسعٍ وأربعين واربعمائة توُفّي بمعرّة النعمان من الشام أحمد بن عبدا... بن سليمان التّنوخي المعري الشاعر الأديب الضّرير."[٢]

٢- الفصول والغايات من ناحية الشكل

سنبحث في هذا المجال عن الفصول والغايات من ناحية الشكل حيث نهتم بالجرس والإيقاع حصيلتي السجع السائد على الكتاب، والمفردات وكيفية استخدامها من قِبل الكاتب، والخيال وعناصره، ونظم الجُمل وطريقة التعبير والتصميم والبناء.

٢-١- الجرس والإيقاع:

يلازم الجرسُ والإيقاع النّثرَ المسجوعَ كما يلازم الشعر ويمكن القول بأَنّ السجع في النثر هو الّذي يشكل الجرس والإيقاع ويتركهُ وراءه كظلٍّ يرافقُ صاحَبهُ أينما راحَ. والسجع: "هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر".[٣] ولو تصفَّحنا الفصول

[١]- محمد سليم الجنديّ، *الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره*، المجلد الأول، ص٢٦٤.

[٢]- جمع من المؤلفين، *تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه النّحاة للقفطي*، ص ٥٦.

[٣]- سعدالدين التفتازاني، *مختصر المعاني*، ص ٢٩٤. و الفاصلة في النثر كالقافية في الشعر.

والغايات وبحثنا عن السجع فيه لَرأينا أنّه يزخر بنوعين من السّجع وهما السجع المطرّف والسجع المتوازي. مثل قوله: "أمّا الإله فمرجّب، وأمّا القدر فعجب."[١] و "أنعم ربّنا كلَّ حين، وجاء فعله بالبرَحين."[٢] و"ما أنس رجل وحيد بين اُناس حيد، عن مودّة الحَريد، رجع إلى عشيرة، بالرّشد عليه مشيرة."[٣] و"أعوذُ بعزّته من برق ارتعج، في ليل أدعَج، وهَدر الرّعد وعَجَّ، وجرى سيلٌ فتمعَّجَ، فأيقظ النائم وأزعج، وأثّر في الارضِ ولعج، وبكي في ضحك وضَحِك في انتحاب"[٤] والمُلاحَظ في العبارات الّتي مَرّ ذكرها هو اختلاف الفواصل في الوزن والاتفاق في التّقفية والفواصل هي: "المرجّب والعجب" و"حين وبرحين" و"وحيد وحيد وحريد" و"ارتعج وأدعج وعَجَّ وتمعَّج وأزعج ولعج" فالسجع الموجود بين هذه الفواصل هو السجع المطرّف.

ثمّ يقول: "أحلف بسيف هبّار وفرس ضبّار، يدأب في طاعة الجبّار، وبركة غيثٍ مدرار، ترك البسيطة حسنة الحَبار، لقد خابَ مضيع الليل والنهار، في استماع القينة وشرب العُقار"[٥]وأيضاً يقول: "الله الكامل، والنقص لجميعنا شامل، فماذا يومّل الآمل"[٦] ففي هذه العبارات تَتّفقُ الفواصل في الوزن والتقفية وهي: "هبّار، وجبّار، وضبّار، والحَبار، والنَّهار، والكاملُ والشاملُ والآمل" والسجع الجاري بين هذه الفواصل هو السجع المتوازي.

---

[١]– ابوالعلاء المعري، *الفصول والغايات*، ص ٤٤٨.

[٢]– المصدر نفسه، ص ٢٤.

[٣]– المصدر نفسه، ص٣٥. حيد: جمع احيد و هوالذي يحيد عن الشيء و الحريد: المنفرد.

[٤]– المصدر نفسه، ص ٧٧. ارتعج البرق: إذا إشتدّ اضطرابه. اُدعج: الاسود. هَدَرَ الرعدُ: صَوَّتَ. وعَجَّ كذلک. تمعَّجَ السيلُ: إذا سال هاهنا وهاهنا. اللعج: التأثير في الجلد وفي القلبِ.

[٥]– المصدر نفسه، ص ١١. الهبّار: القاطع. والفرس الضبّار: الّذي إذا وَثبَ وقعت يداه. مجتمعتينِ. الحَبار: الاثر والهيئتة. العُقار:الخمر.

[٦]– المصدر نفسه، ص ٥٨.

والمعري لايلتزم السجع دائماً في كتابه إذ أنّه يجري أحياناً وراء ما يشغله عنه فاستمع إليه يقول: "خَلَقتني كما شئت وأَعطيتني ما لا أستحقُّه منك، ولعلّ في عبيدك من هو مثلي أو شرٌّ، في خزائنه بدر اللّجين والعقيان، لايطعَمُ منها المسكين ولا يغاثُ الملهوف والطُف بي رَبِّ ولا تجعل خُطاي في وعاث."[١]

يعقّد المعري كلامه بأساليب شتّى ومنها هي: "تصعيب ممرّاته إلى أسجاعه، إذ نراه يعني بالتزام ما لا يلزم فيها فإذا هو يبني أسجاعه لا على حرف واحد، بل على حرفين أو أكثر. وهو لا يكتفي بذلك بل نراه يعدل في أحوال كثيرة إلى المجانسة وهو يستعين على هذه المجانسة باللفظ الغريب الذي كان يشغف به شغفاً شديداً."[٢]

ويتّضح لنا ممّا سبق أنّ أبا العلاء لايسجع كغيره من الكتّاب لأنَّ الآخرين من الكتاب عندما أرادوا السّجع في كلامهم يبنون أسجاعهم على حرف واحد على الأغلب والحال أنّ المعري يفرض على نفسه حرفين أو أكثر من الحرفين في أسجاعِهِ. والواقع اَنّه "يلتزم في السّجع ما يلتزمه في قافية اللزوميات."[٣] والآن نأتي بنموذجين من الفصول والغايات وديوانه اللزوميات ليظهر لنا أنّه لم يحذُ حَذو الآخرين في اعتمادهم على حرف واحد في فواصل آثاره المنثورة. يقول في الفصول والغايات: "صُل على الظالم بالمُنصُل واخضب السفاسق من دم الفاسق."[٤]

---

[١]– المصدر نفسه، ص ٢٧١. الوعاث: جمع وعث وهو المكان السهل الكثير الدّهس تغيب عنه الاَقدام.

[٢]– شوقي ضيف، *الفن و مذاهبه في النثر العربي*، ص ٢٦٩.

[٣]– طه حسين، *المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين «قسم مع أبي العلاء في سجنه»*، المجلّد العاشر، ص ٤٥٠.

[٤]– شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام*، ص ٢٠٨. المُنصُل: السيف. السفاسق: ممّا يوصف به السيف وهي طرائق فيه وقد تُسمّى الطرائق في ظهر الجمل إذا أكل الربيع السفاسق وكذلك في القوس والسنان

لقد ذكر المورخون أنّ المعري حاول معارضة القرآن في إيقاعه وفواصله ولا بدَّ من النظر إلى هذا الكلام بشيءٍ من الريب حيث أنّ مَن أمضى النظر في الفصول و لغايات وَجَدَ أنّه نسجه على أسلوب القرآن في بعض جوانب منه كما يقول: "أذلّت العائذة أباها، وأصابَ الوحدة وربّاها، والله بكرمه اجتباها، أولاها الشرف بِما حَباها، أرسل الشمال وصَباها، ولا يخاف عُقباها"[١] ففي النظرة الأولى لهذه الفقرة من الكتاب يخطر لنا أنّ صاحب الفصول نسجها على أسلوب سورة الشمس وختمها بالآية الأخيرة منها "ولا يخاف عُقباها."

عندئذٍ نحن أمام طريقين مختلفين: الطريق الأول يوجّهنا إلى الرأي الذي يقول بأنّ المعرّي أراد بهذا الكلام معارضة القرآن الكريم. أمّا الطريق الثاني يدلّنا على أنّه قلّد القرآن الكريم بعض الأحيان في أسلوبه وفي ما ينطوي عليه من صور مشبهة لبعض صور القرآن. بالنسبة للطريق الأول يمكن القول بأنّنا نرفض أن يكون المعرّي قد عارض القرآن لأنّه كان من الواجب أن يشمل هذا الأسلوب الكتاب كلّه والحال أنّنا عثرنا على هذا الأسلوب في بعض جوانب من الكتاب فقط، إذاً فالأقرب إلى الصواب والأعدل هو أن لا نقطع بمعارضة المعري للقرآن الكريم وأيضاً من المعقول أن نحكم على أنّ المعرّي قلّد القرآن في أسلوبه بعض الأحيان وأتى بصور تشبه بعض صور القرآن وقلّد من الفواصل القرآنية خاصّة فواصل سورة الشمس إعجاباً بهذه الفواصل الرائعة الجميلة.

٢-٢-المفردات

كما نعلم إنّ للمفردات دوراً هاماً في خلق المفاهيم و المعاني الّتي اختلجت في نفس المعري إذاً فعلينا أن نتوقّف قليلاً لديها كي نتعرّف على القيمة الفنية للفصول والغايات أكثر فأكثر.

---

[١]- ابو العلاء المعري، الفصول و الغايات، ص ٢٥٣.

٢-٢-١-الدّقّة في استخدام المفردات

عندما نريد أن نتوقّف عند كلمة شعرية كانت أم نثرية فلابدّ لنا من تطبيق مبدأ الدقّة عليه ومعناها أن يختار الشاعر أو (الكاتب) من الكلمات أدقّها في أداء المعنى الذي يجول في نفسه، فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدلّ على إحساس الشاعر أو (الكاتب) من بعض، و"الشاعر و(الكاتب) الموفّق هو الذي يهتدي إلى الكلمة الّتي تكون شديدة الإبانة عمّا يريدُ، لأنَّ التمييز بين الألفاظ شديد."[١]

فعلى سبيل المثال نختار هذه الجملة من الفصول والغايات وهي: "إنّ ربّنا لو اختار، لا تّخذت القائنة حِبّاً من الحِبَّة"[٢] يقول المعري إنّ الله لوشاء لَجَعَلَ بذور الأعشاب قِرَطَة تزين النّساء وتُعلّق في شحمة أُذنهنَّ بغية البهجة والجمال.

هناك سوال يطرح نفسه لماذا أتى المعري بكلمة الحِبّة بدلاً عن أية كلمة أخرى؟ الحقيقة أنّه قصد بها الإشارة إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويقضي ما أحَبَّ بحيث يقدر على أن يجعل البذور زينة للنساء جُمَع وهو اختار لفظة "الحِبّة اختياراً حسناً بسبب مجانستها مع كلمة "الحِبّ" في اللفظ والسبب الآخر الذي هدى المعري إلى اختيار هذه الكلمة هو أنّ الحبّة دون غيرها من الكلمات تصلح لأن تكون قُرطاً مُعلّقاً في شحمة أُذن النساء.

وفي موضع آخر من كتابه يقول: "لم أَر كالدنيا عجوزاً قد اشتهر خبرها بقتل الأزواج وهي على ما اشتهر كثيرة الخُطّاب"[٣] قد تمّ اختيار الكلمات في هذه العبارة العلائية اختياراً

---

[١]- أحمد أحمد بدوي، *أسس النقد الأدبي عندالعرب*، ص ٤٥٢.

[٢]- ابوالعلاء المعري، *الفصول و الغايات*، ص ١٩٨. القائنة: الّتي تقين النساء أي تزينهنَّ. الحِبَّ: القُرط. الحِبَّة: بُذور الشعب.

[٣]- المصدر نفسه، ص ١٠٢.

دقيقاً يدلّ على المعنى الّذي كان يجول في نفس المعري ويريد بها الإشارة إلى أنّ الدنيا تُري نفسها للراغبين فيها على مدى القرون والعصور وشبَّهها بالعجوز دون العروس إذ إنّ الدنيا مضت عليها آماد طويلة وهي يخطبها الناسُ فصارت عجوزاً من تتابع الأيام وتواليها وهي تدفن أزواجها تحت التراب والحال أنّهم يمدّون أيديهم إليها غير أنّها تتركهم وتُري جمالها للآخرين من خُطّابها والكلمات الّتي اختارها المعري في كتابه هذا تتّسم كلّها بسمة الدقّة ومَردّ ذلك إلى اطلاع المعري الواسع على لغة العرب، حيثُ جعله قادراً على اختيار أدقّ الألفاظ في أداء المعنى الذي أراده.

والاطلاع الواسع للمعري على لغة العرب قد جَعَلَ كتابه زاخراً بالمفردات الغريبة وهذه المفردات هي زينة الكتاب إلا أنّ هناك فارقاً بين غرابة مفردات الفصول والغايات والّتي صنعها الكتّاب الآخرون إذ إنّ المعري أغرب في هذا الكتاب أوسع ما يكون الإغراب وكيف لا يغرب في كتابه وهو عالم بجميع المفردات الّتي استعملها العرب أو لم يستعملوها.

٢-٢-٢-عدم الابتذال في المفردات

من القضايا المهمّة الّتي يجب أن نكترث بها هي قضية الاستعمال أوالابتذال و"معنى ذلك أن تكون الكلمة مسموعة عن العرب الفُصحاء."[١] ويبعد الفصول والغايات عن الاستعمال والابتذال والمعري لايعتمد على المفردات المبتذلة المستعملة بل هو يرغب في الغريب من الكلمات الّتي لم تجتمع لأحد من الّذين سبقوه أو عاصروه وهو كما سبق يعقّد كلامه ويصعّبه أشدّ تصعيب إلى أن يشرح ما التبس فهمه على طلابه الّذين كانوا يقبلون عليه من جميع الآفاق ويقرؤون عليه، والحقّ أنّ المعري كان عالماً ذا ثقافة واسعة وكان من القلائل الّذين عرفوا مانطقت به العرب.

[١]- أحمد أحمد بدوي، *أُسس النقد الادبي عندالعرب*، ص ٤٦٣.

يقول الذّهبي: إنّه: "كان عجباً في الاطلاع الباهر على اللّغة وشواهدها".[١] وأيضاً يقول ابن الجوزي: إنّه "سمع اللغة وأملى فيها كتباً وله بها معرفة تامّة".[٢] وهذه كلّها تشهَد على ثقافته الواسعة في اللغة. إليك هذه العبارةَ: "حبّذا العَرمَضُ، أوان الرَّمَض، بالله استغاث الرّمضون، رضيت بالخَضَض، على مَضَض وبقضاء الله رضي السّاخطون، لايغرّنّك إغريضٌ، في إحريض، فإنّه يزول واللهُ باقٍ".[٣] وكما لاحظنا تتكوّن هذه العبارة من المفردات الغريبة غير المبتذلة في عصر المعري وهي: العرمض، والرَّمض، والرَّمضون، والخضض، والإغريض والإحريض.

٢-٣- الخيال

ينحصر الخيال في إطار النقد الأدبي في أبواب التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وسنتناول كلاً منها بالبحث على حدة إن شاء الله.

٢-٣-١- التشبيه

يحفل الفصول والغايات بتشابيه جميلة تحرّك النفوس وتدعو القلوب إليها. كقوله: "لا آيس من رحمة الله ولو نظمتُ ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهنّ بنات جمير ووَضَعتُهنّ في عُنُقي الضّعيفة كما يُنظَمُ صغارُ اللؤلؤ في ما طال من العقود ولو سَفَكتُ دَمَ الأبرار حتّى استَنّ في كاستنان الحُوتِ في مُعظم البحر وثوباي من النّجيع كالشَّقيقتين والتُّربة منه مثل الصَّرَبَة، لَرَجَوتُ المغفرة."[٤]

---

[١]- جمع من المؤلفين، *تعريف القدماء بأبي العلاء عن إنباه الرواة على أنباه النّحاة للقفطي*، ص ١٩٠.

[٢]- المصدر نفسه، ص ١٨.

[٣]- ابوالعلاء المعري، *الفصول و الغايات*، ص ٢٩٥. العَرمَض: الطُّحلُب. الرَّمَض أن يشتدّ الحرّ في الرَّمضاء وفي الحصاالصّغار ولا يقال له رَمضاء حتّى تشتدّ عليه الشمسُ.

[٤]- المصدر نفسه، ص٢٣١. بنات جمير: واحدها ابن جمير وهو الليل المظلم أستنّ فيه: أمضى فيه على شقٍّ من النشاط. والصَّرَبَة: صَمغ أحمر ويقال إنّه صَمغ اَلطَّلح

هنا يتحدّث المعري عن ذنوبه ويشبّهها بالجبال مرّة وباللّيل المُظلم مرّة أُخرى لِسوادها وكثرتها ثمّ يشبّه مضيه في سفك الدّماء بمضي الحوت في البحر الّذي يقتل السَّمكات عندما يمرّبها وبالتّالي يشبّه ثوبه والتّربة المُلطَّخَينِ بِدَمِ الشَّقيقينِ والصَّمغِ الأَحمرِ. وهو في هذه التشابيه الطّريفة الرائعة وبعد أن يقترف بكثرة ذنوبه وسوادها كالجبل والليل المُظلم لاييأس من رحمة ربّه الواسعة فيرجو غفرانه كأنّه نظر بِلَحظة غيب إلى الحديث المروي عن المصطفى (ص): "والّذي نفسي بيده لَو لَم تُذنبوا لَذَهَبَ الله تعالى بِكم، ولَجاءَ بقومٍ يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفرلهم."[١] ولاشك أنّ المعري قد أصابَ ووُفِّق في التعبير عن المعنى الّذي كان يجول في نفسه بهذه التشابيه الّتي تُبرز فكرتَه وتُجلّيها جلاءً تامّاً.

٢-٣-٢- الاستعارة

الاستعارة هي من المجازات الّتي عني بها النقّاد عناية كبيرة لأنّها تكون ذات قيمة رفيعة بين فنون البيان. وهي: "أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللّغوي معروفاً تدلّ الشّواهد على أنّه اِختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غيرالشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غيرلازم، فيكون هناك كالعارية"[٢] قداستفاد المعري من الاستعارة للتعبير عن المعاني المثيرة للأحاسيس المرهفة. خذ هذه العبارة كنموذج: "لو نقلتُ مياه اللُّجج على منكبي في قُداف، وأفرغتُه على مناكب الجبال، وجَرَرتُ كثبان الأرض وصرائمها في جرّ أو مِشآةٍ، فألقَيتها في الخُضر الدائمات، حَفداً لله كنتُ أحَدَ العَجَزَةِ المُقصِّرين."[٣] شبّه المعري هنا الجبال بالإنسان ثمّ حذف الإنسان وأبقي إحدى لوازمه وهي المناكب علي أنّه الاستعارة المكنية وهذه الاستعارة هي استعارة رفيعة أي بعيدة عن

---

[١]- محمد حسن الحمصي، *القرآن الكريم (مع فهارس كاملة للمواضيع و الألفاظ)*، ص ٩٦.

[٢]- الشيخ الامام عبدالقاهر الجرجاني، *أسرار البلاغة*، ص ٢٧.

[٣]- ابوالعلاء المعري، *الفصول والغايات*، تحقيق، ص ٧٤. القُداف: الجرّة. المِشآة: زبيلٌ من أَدَمٍ. الخُضَر الدائمات: اللُّجج الواقفة. الحَفد: السُرعة في الخدمة.

العامية والابتذال وهي أيضاً تتّسم بِسِمة الطّرافة والجدة. بمعنى أنّها تُلاقي قبولاً لدى الذوق المعاصر وبالجملة إنّها استعارة تجرّ القلوبَ وراءها لتهديها إلى منهلٍ عذبٍ من المعاني الرائعة الطّريفة.

٢-٣-٣- الكناية

من المعروف أنّ المعري صعّب كلامه أشدّ تصعيب و ابتعد عمّا يفهمه الناسُ أكثرهم من الكلمات و المعاني و هذا جعله يستخدم الكلمات و المعاني الغراب، فَأَدخل الكثير من الكنايات في كتابِهِ. "و يلحّ في استخدامها أشدّ إلحاحٍ و هو لا يذكر الأشياء بأسمائها المعروفة بها إلى أن يحسب القاريء أنّه نَسِي أسماء هذه الأشياء."[١] يقول: " و قد ركبتُ ذا الطرّتين فكان الصّعبَ الذلول."[٢] فهنا كني بذوالطرّتين عن الليل. أيضاً يقول: "طوبى للمترنّمين بالتّسبيح ترنّم هَزِج النهار"[٣] و هزج النهار كناية عن الذّباب. و جارّ الضّبع في عبارة: "لو أَصابني جارّ الضّبع ما غسلني من الذنوب"[٤] كناية عن مطر شديد كأنّه يجرّ الضبُع أي يخرِجها من وِجارها. و أبيض حرّ في عبارة: "عَزَم ظاعنٌ على الشُّخوص فَاتّخَذَ سُمّهة مِن خُوصٍ، فيها أبيض حُرٍّ."[٥] كناية عن الخُبز، و هناك الكمّ الهائل من الكنايات الّتي يحفل الفصول و الغايات و منها:

ذاتُ الفقار كناية عن العقرب، و بنت الفلحاء كناية عن الكلمة و الفلحاء الشّفة السّفلى إذا كانت مشقوقة، و مِن الكنايات أَيضاً هي بنت طبق كناية عن الحية و ناصح الجَيب كناية عن الصدر و كذلك كنَّى المعري عن الإبل ببنات العيد.

---

[١]- *گروهي از نويسندگان، دائرة المعارف بزرگ اسلامي، ج ٦، ص ١٥.*

[٢]- ابوالعلاء المعري، *الفصول و الغايات*، تحقيق، ص ٣٤٥.

[٣]- المصدر نفسه، ص ٢١٩.

[٤]- المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

[٥]- المصدر نفسه، ص ٣٣٨. الشخوص: المسير، سُمَّهة: نحوالسُفرة تتّخذ من الخوص.

و الكنايات الّتي استخدمها المعري قد وردت في كلامه لأوّل مَرّة إذ إنّ صاحب الفصول والغايات من أساطين اللغة في عصره و لاعجب أن يأتي بما لم يأتِ به الآخرون. ويسعى المعرّي أن يجمع في كتابه ألفاظاً لغوية غريبة مغرقة في الإغراب ولا يهمّه أن تكون هذه الألفاظ سُجّلت في المعاجم اللغوية بل إنّ عدم تسجيلها في المعاجم يدفعه إلى أن يسجلها في كتبه ومنها الكنايات التي نراها في الفصول والغايات. وفضلاً عن هذا كلّه يكنّي المعري بكلمات مختلفة عن شيء واحد. فعلى سبيل المثال هو كنّى عن الحية بأربع كلمات هي: بنت الجبل[١]، وبنت طبق[٢]، وأُمّ عثمان[٣]، وابن قترة،[٤] وأيضاً يكنّي عن الذئب بكلمتين وهما: أبومَذقة[٥] وأبوجعدة،[٦] وأيضاً كنّى عن اللّيل بذي الطّرتين[٧] وبنات وبنات جمير[٨].

٢-٣-٤- المجاز

يحوي الفصول والغايات كثيراً من المجازات. خذ هذه العبارة كنموذج: "شهد بك البرق و الرّعد، والنبات النَّعد، والثّرى الجَعد، وخضعت قحطان لك ومَعَدّ ، وجرى بقدرك النّحس والسَّعد."[٩] ففي عبارة "شهد بك البرق والرّعد" مجاز عقلي لِأنّ المعري أثبت فعل الشهادة للبرق والرّعد على سبيل المجاز لا الحقيقة.

---

[١]- المصدر نفسه، ص ٤٥٢.
[٢]- المصدر نفسه، ص ١١٤.
[٣]- المصدر نفسه، ص ٣٧٩.
[٤]- المصدر نفسه، ص ٥٦٢.
[٥]- المصدر نفسه، ص ٣٨٠.
[٦]- المصدر نفسه، ص٤٢٩.
[٧]- المصدر نفسه، ص ٣٨٠.
[٨]- المصدر نفسه، ص ٢٣١.
[٩]- المصدر نفسه، ص٤٧.

وفي موضع آخرمن كتابه يقول: "إذا نفثتك الشدائد إلى المفازة ومعك خيط من الأَبَق، و مُمسك ماءٍ وفَغَرَت لك البيداء فَمَ جفرٍ فأَصَبتَ منه بُغيتك، فاصنع حوضاً ولَو قيدَ فِترٍ فَأَلق فيه من نزيع ذلك الجَفرِ فما أصابه من وَحشٍ أو إنسٍ أو ذي جناحٍ فلك من الله الثّواب".[١] هنا يدعو المعري الإنسان إلى القيام بالمعروف والفعل الحسن في جميع الأحوال والظروف ولو قذفت به الكوارث. والمجاز هنا واقع في إثبات النفث أو القذف فعلاً للشّدائد والفغر أو الفتح للبيداء على أنّه مجاز عقلي إذا إنّ الشّدائد لاتتمكن من القذف بالإنسان كما لاتتمكن البيداء من فتح الفم.

٢-٤- نظم الجُمل

يتكوّن الفصول والغايات من فصول مختلفة قد تقصر وقد تطول وقصر فصوله أو طولها تابع لما قصده المعري من المعاني والمفاهيم. والناظر لكتابه يرى أنّه لم يسهب في الجمل التي استخدمها بل هو أوجز فيها أشدّ الإيجاز. يقول المعري في إحدى فصول كتابه: "خبرك عندربّك،إذا استعجمت الأخبار،أدّاك نصبٌ إلى وَصَب،وربّك مُصِحّ الأجسام، هجم بك الثَّمَل، على طول الأَمَل ، ربّنا قاضي الحاج، والجملة أن الأمل صحيحٌ، والجسد كثير الأوصاب."[٢] فهنا نراه أوجز في الجمل ولم يطنب فيها ويبدو أنّ الأمر الذي جعله يسلك هذا المسلك من سرد العبارات القصيرة هو إعجابه بالقرآن على أنّه مثل أعلي في الفن الأدبي فتأثّر به كما تأثّر بأسلوب القرآن علي نحو تقليده من أسلوب أقسام الذكر الحكيم:

---

[١]- المصدر نفسه،. ص ٢٣٢. النفث: شبيه بالنّفخ. الأبق: القنّب. ممسك الماء: الوعاء الذي يمسكه ويحفظه. البيداء: الفلاة.

فَغَرَت: فَتَحت. الجفر: البئر الواسعة التي لم تطو وقيل هي الّتي طوي بعضها ولم يطو بعض. البغية: الحاجة. القيد: القدر. .الفتر: مابين طرف الإبهام والسبابةٍ اذا فتحها النزيع: كالمنزوع أي ما اُستُخرِج.

[٢]- المصدر نفسه، ص ١٠٣. الثَّمَلُ. السّكر. الوصب: المرض الدّائم.

"أُقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرّحيل، تطلب مواطن حُلَيل، والرّيح الهابّة بليلٍ، بين الشَّرَطِ ومطالع سُهَيل، إنّ الكافر لَطويل الوَيل، وإنَّ العُمُرَ لَمكفوفُ الذَّيل".[١] قد اعتمد المعري على الجمل الفعلية أكثر من اعتماده على الجمل الاسمية وهو يراعي ترتيب أجزاء الجمل ويأتي بالفعل وبالفاعل بعده ثمّ بالمفعول به ونرى أحياناً أنّ اعتماده على العبارات الاسمية أفضل من اعتماده على الجمل الفعلية. خذ هذه العبارة: "العقل نبيءٌ، والخاطر خبيءٌ ، والنّظر رَبيءٌ، ونور الله لهذه الثّلاثة معين".[٢]

وإلى جانب هذا كلّه يزخر الكتاب بالعبارات الإنشائية والإخبارية، والعبارات الإنشائية تكون أكثرها من نوع الإنشاء الطّلبي من الأمر والنّهي والاستفهام و لتمنّي والنّداء. نحو: "اِحفظ جارك، وإن كان من العضاة فاتّق شوكه، ولَيكن تحريقُه بِيد سواك، ولا تمنعك خشونة المَسِّ من الثّناء على البَرَمِ بالطِّيب"[٣] وفي موضع آخر يقول: "لا تكن الظالم ولا معينه، يزوِ عنك الشرّ قطينه".[٤]

ومن العبارات الإخبارية: "خوف الله معاقل الأمن، والحكم له في العاقبة والمبتدأ، لا يردُ عليه عَجَبٌ[٥]" وأيضاً يقول: "لِله المنُّ والطّول، شاهداً ما غاب ولن يغيب، وقديماً ليس لِابتدائه وجود، تقاصر لأوليته طِوال الأعمار".[٦]

٢-٥- طريقة التعبير

إذا أَتينا إلى الفصول والغايات وبحثنا عن الجدّ والهزل فيه لَتوصّلنا إلى أنّ المعري ابتعد عن الهزل في كلامه وجدّ فيه. ذلك أنَّ موضوع الكتاب هو تمجيد الله تبارك

---

[١]- المصدر نفسه، ص ٣١٣.

[٢]- المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

[٣]- المصدر نفسه، ص ٣٢٣. البَرَم: ثمرالعِضاة وهو طيب الرائحة.

[٤]- المصدر نفسه، ص ٣٧٥. يزوي: ينحي، والقطين: هنا بمعني المقيم.

[٥]- المصدر نفسه، ص ٢١٩.

[٦]- المصدر نفسه،. ص ١٢٦.

وتعالى. فيقول مُمَجّداً ربَّه: "الحمدلله الذي أنعم فأغفلتُ الشّكر، وأحسنَ فأَسأتُ وأَمهَلَ زماناً فما أَنجَمتُ، حمداً يوفي على كل عدد جال في ضميرٍ، ونطق به ناطق وأشار إليه مُشيرٌ، و ما سوى ذلك من العدد الذي عَلِمَه مُرسل السّنة وكاشف السَّنوات."[١]

ونرى أحياناً أنّه هزل في كتابه لكنّنا لا نكاد نمضي في قراءتها حتى يأخذنا شيءٌ من الدّهش فإذا فرغنا من قراءتها وقفنا حائرين. إقرأ هذا الفصل: "يقدر ربّنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه، ويسمع الأصوات بِيده، وتكون بنانه مجاري دمعه، ويجد الطّعم بأذنه، ويشمّ الروائح بمنكبه، ويمشي إلى الغرض على هامته، وأن يقرن بين النير وسنير، حتّى يرَيا كفرسي رهان، وينزل الوعِل الزعِل من النّيق، ومجاوره السوذنيق، حتّى يشدَّ فيه الغرض، وتُكرب عليه الأرض، وذلك من القدرة يسير. سبحانك ملك الملوك عظيم العظماء"[٢] صوّر المعري بخياله إنساناً ينظر بقدميه، يمشي على رأسه، يسمع بيده، يبكي بأصابعه، يذوق بأذنيه، وأيضاً نراه يجمع بين جبلينِ قد استقرّ أحدهما في الشّام والآخر في نجد ونشاهد الحوش الّتي تتّجه صوب السّهول المنخفضة من أعالي الجبال.

فهذه العبارات هي مصدر الضّحك في البداية لكن إذا دقَّقنا النظر فيها يأخذنا الدَهش. يقول فيه الدكتور طه حسين: "ظاهر هذا الفصل فواضح لا غموض فيه، فأبو العلاء ينبئنا بأنَّ قدرة الله شاملة تسع كلّ شيءٍ ممكن في رأي العقل وهذا لون من ألوان التمجيد لِلّه والإشادة بقدرته الشّاملة."[٣] فيمجّد المعري ربّه بالإشارة إلى قدرته التي تستطيع أن تجعل الإنسان ناظراً بقدمه وسامعاً بيده وماشياً على رأسه كما يشير إلى جمع المتباعدين بقدرته جلّ وعلا.

---

[١]– المصدر نفسه، ص ١٢٥. أَنجم: أَقلع. السَّنوات: سنو القحط والجدب

[٢]– المصدر نفسه، ص ٤٩. النير: جبل بأعلي نجد. سنير: جبل بين حمص و بعلبک. السّوذنيق: الصَّقرأو الشاهين.

[٣]– طه حسين، *المجموعة الكاملة لمؤلّفات الدكتور طه حسين:« قسم مع أبي العلاء في سجنه»*، المجلّد العاشر، ص ٤٦٣.

٢-٦- التصميم و البناء

إنّ للكلمات دوراً رئيسياً في خلق الأعمال المختلفة من الأدبية أو التأريخية أو الاجتماعية وما شاكل ذلك وهي تُعَدّ لبنات معتمدة عليها في إيجاد الأفكار وخلقها. "والكلمات لا تعني الدّلالة على الأشياء، وإنّما تعني أفكاراً وأشياء في الوقت نفسه وهي إذن ليست قطعاً من الخشب أو الفسيفساء يوضع بعضها إلى جانب بعض وإنّما هي أرواح تخزّن في داخلها مشاعر وإحساسات."[١]

والأفكار التي تطرَّق إليها المعري في كتابه بشكل مُبعثر هي: الاستغفار، وذكرالله، وذكر الموت، والإشارة إلى ذنوبه، والإشارة إلى قدرة الله تبارك وتعالى، والتقوى والحثّ عليها، والحديث عن الدّنيا. والمعري يستغفر غير مرّة في كتابه نحو: "أستغفر من لا يعزب عليه الغفران"[٢] و"أستغفر ماحي السيئات من قول ليس بإسناد".[٣]

وفي موضع آخر يقول: "اسق اللهمّ غفرانك قبوراً طال عهدها بالعهاد"[٤] وعن ذكر الله يقول: "عجبت لفم ذكر الله كيف يدرَدُ و ثنايا مَرّ بها ذكره كيف تَحبَرُ"[٥] و"أسمر بالتّذكرة و سامِر"[٦] وأيضاً يقول: "اللهم اجعل ذكرك عذباً على عذبة لساني"[٧] والفكرة الرئيسية الأخرى الواردة في كتابه هي ذكر الموت. استمع إليه يقول: " ويحي إذا الوقت نَفِدَ، ونزل حِمامي فَأَفِدَ، وقُوِّي نُهوضي ورُفِدَ"[٨] وأيضاً ويقول: "يا موتُ كلّ ضبٍّ تحترش، والأرض

---

[١]- محمد زكي العشماوي، *قضايا النقد الأدبّي بين القديم و الحديث*، ص ٢٢١.

[٢]- ابوالعلاء المعري، *الفصول و الغايات*، ص٣٣. لايعزب: لايبعُد.

[٣]- المصدر نفسه، ص ٥٤.

[٤]- المصدر نفسه، ص٧٢.

[٥]- المصدر نفسه، ص ٣٨.

[٦]- المصدر نفسه، ص ١٢٨.

[٧]- المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

[٨]- المصدر نفسه، ص ١١١.

والأرض تتوسَّد وتفترش"[١] ولا يغفل المعري عن كثرة ذنوبه فيتحدّث عنها في مواضع عديدة من كتابه ويقول: "كم أُوطيءُ في الذنوب، وأضمّن الحوب بالحوب.... فاستُرني ربٍّ فعيوبي أقبح من السّناد والإكفاء".[٢] أيضاً يقول: "إنّ معايبي لكثير، فجاز مولاي بالإحسان رجلاً أعلمني بعيبٍ في"[٣] و"لاتجعلني ربّ أتّقي صغائر الذنوب وأفعل كبائر السيئات".[٤] وما يئس المعري من رحمة الله إلى جانب كثرة ذنوبه ويقول : "لما آيس من رحمة الله ولو نظمتُ ذنوباً مثل الجبال سُوداً كأنّهنَّ بنات جمير".[٥]

أمّا الحديث عن القدرة الإلهية الّتي تقوي على إنجاز كلّ عمل خاصّة من المستحيلات والّذي نجده غير مرّة في الفصول والغايات وهذا يدلّ على إيمان المعري بالله جلّ وعلا. يقول المعري: "إذا أذِن ربّنا اخضرَّ الدّرين، وتبجّست بالماء الإرين، ووفى لقرينه القرينُ و راحت الساجسية ومأواها العرين"[٦] ثمّ يقول: "يقدر الله على المستحيلات: ردّ الفائت، وجمع الجسمين في مكان."[٧]

ويدعو المعري الناس إلى التقوى ويحثّهم عليها بالغدوات والآصال: "إتّق الله بالغدوّ والآصال"[٨] أيضا يقول: "لا بَقوى لغير التقوى، فأَحسن اليقين وكن من المتّقين".[٩] أمّا الدنيا الدنيا والحديث عنها تشكل جزءاً آخرمن الفصول والغايات: "أمّا الدنيا فحظوظ ضاع فيها

---

[١]– المصدر نفسه، ص ٣١٤.
[٢]– المصدر نفسه، ص٥٤.
[٣]– المصدر نفسه، ص٦٤.
[٤]– المصدر نفسه، ص٧٠.
[٥]– المصدر نفسه، ص٦٤.
[٦]– المصدر نفسه، ص ٣٣.
[٧]– المصدر نفسه، ص٢٢٥.
[٨]– المصدر نفسه، ص٣٩.
[٩]– المصدر نفسه، ص ٣٤١.

تعب الحريص، والخير عند ربّنا لا يضيع"[١] و"لَم أَرَ كالدّنيا عجوزاً قداشتهر خبرها بقتل الأزواج وهي على ما اشتهر كثيرة الخُطّاب"[٢] وفي موضع آخر يقول: "أيها الدنيا البالية ما أَحسَنَ ما حَلَتك الحالية أَين أُمَمُك الخالية"[٣] وأيضاً يشير إلى أنّ الدنيا ستزول قائلاً : "إنّ "إنّ الدنيا تحلف بربّها الكريم الّذي من حلف به كاذباً أثم وحابَ، أنّها زائلة أَسرعَ زَوالٍ".[٤] زَوالٍ".[٤]

٣- الفصول والغايات من ناحية المضمون

يحوي الفصول والغايات مضمونين هامين وهما: "تسبيح العاقل وتمجيده" و "تسبيح غير العاقل وتمجيده". فيما يلي سنبحث عن هذين المضمونين:

٣-١- تسبيح العاقل وتمجيده

قد أفرد المعري قسماً من كتابه لتسبيح الإنسان وتمجيده لِلّه جلّ وعلا وهو يسبّح خالقه ويمجّده على لسان شخصٍ آخر كأنّه مُعجَبٌ بعظمته سبحانه وتعالى فيفتح لسانه إجلالاً لِلّه وتكريماً له جلّ جلاله. الواقع أنّ العبارات الّتي سَبَّح المعري من خلالها الله تبارك وتعالى ومَجَّدَه هي تنبع عن قلب رجلٍ مؤمنٍ بالله و اليومالآخر وإن شكك في مواضع من آثاره في أمر البعث والحساب كما يقول وهو غير مطمئن إلى البعث:

وظاهر أمرنا عيش وموت ويدأب ناسك لرجاء بعث[٥]

وفي مكان آخر يتحدث عن حيرته عن أحوال الروح بعد الممات قائلاً:

---

[١]- المصدر نفسه، ص ٤٤.

[٢]- المصدر نفسه، ص١٠٢

[٣]- المصدر نفسه، ص ١٩٦.

[٤]- المصدر نفسه، ص. ٤٥٩.

[٥]- أبو العلاء المعرّي، *ديوان لزوم ما لايلزم*، ج١، ص٢٠٣.

أرواحنا معنا وليس لنا بها علم فكيف إذا حوتنا الأقبر[١]

المعرّي يعتقد أنّ الأمور بيد الله جميعاً وهي تجري على قدرته ومشيئته: " لِله الغلب، إليه المنقلب، لا يعجزه الطّلب، بيده السّالب والسَّلَبُ "[٢] و يقول المعري إنّ العالم والكون مُحدث أي كائن بعد أن لم يكن والله سبحانه هو وارثه لأنّه وَرَثَ نفسه ملك السموات والأرض ويقول أيضاً إنّ المطر الشديد والمطر الضعيف ينزلان بقدرته ثم بالتّالي يدعو الإنسان إلى أن يكفّ عن السّوء كما يدعوه إلى أن يسبّح خالقه في النهار وحين اختلاط الظّلام. "أمّا العالم فمُحدث، وربّنا القديم المُورّث الوابل بقدرته والدّث فاناً عن القبيح والرَّفَث، وسبِّح في النهار والمَلَثِ."[٣]

إنّ المعري رجلٌ قد قضى عمره في سبيل الوصول إلى رضى الله جلّ و علا ويأمل دائماً أن يتمثّل كل نَفَس من أنفاسه إنساناً يناجي ربَّه في جوف اللّيل ولَو دَبَّ النوم في أجفانه. يقول المعري: " ليتَ أنفاسي أُعطين تمثّلاً، فتمثّل كلّ نفس رجلاً قائماً يدعو الله تبتّلاً، يمنع جفنه لذيذ الإغفاء "[٤] وفي موضع آخر من الفصول والغايات يتحدّث المعري عن صفات الحزماء ويرى أنّ الحازم من لا يظلم الناس وهو يمجّد خالقه ويسبّحه ويرى أيضاً أنّه لاينطق إلّا بغير طاعة الله إذاً في رأيه من كان على ثلاث ميزات يعَدّ من الحزماء وهي: نبذ الظلم، تسبيح الخالق و تمجيده، و قول الحقّ: "و الحازم الذي لا يأبسُ، يمجّد الله و يقدّس، و بغير طاعته لاينبِسُ، لعلّ الأجل يدركهُ من أهل الصّفاءِ"[٥] و كثيراً ما ما يتحدّث المعري عن الدّعاء و رغبته فيه. و يقول إنّ أُنسي بدعاء الله تعالى أكثر من

[١]- المصدر نفسه، ج١، ص ٣٦٧

[٢]- الفصول و الغايات، ص١٥.

[٣]- المصدر نفسه، ص١٨.

[٤]- المصدر نفسه، ص٣٣.

[٥]- المصدر نفسه، ص٣٥.

أنس رجلٍ ابتعد عن بلاده و عشيرته ثمّ رَجَعَ إليها: "ما أنس رجل وحيد، بين أناسٍ حيد رَجَعَ إلى عشيرة، بالرّشد عليه مشيرة، أكثر من أنسي بدعائك."[١]

يرى المعري أنّ الإنسان يفتقر دائماً إلى الله تعالى و لا يتمكن من الاستغناء عن ذاته جلّ وعلا يقول: "مَن الغني عنك ينبغي أن يدّعي ذلك مَن يقدر أن ينفع ويضرّ، و لا يقدر على المنفعة والضرر سواك. "[٢] أيضاً يعتقد أنّ الله بارٌّ بكلّ مَن في البرّ والبحر ويشمل كرمه وجوده جميع الخلائق حتّى من بخل إذا سُئل: "أنت الغافر الوافر، لِمَن غَفَلَ، وحَفَلَ، والبرّ، بأهل كلّ بحر و بَرٍّ، والحانُّ، على الشحيح الآنِّ. "[٣]

وتلازم مخافة الله المعري طيلة حياته ويرى أنَّ مخافة الله تصون الإنسان وتحفظُه لأنّ الحاكم هو الله: "خوف الله معاقل الأمن، والحكم له في العاقبة والمبتدأ، لا يردُ عليه عجبٌ وكيف يعجب من شيءٍ خالق العجائب ومبتدع الآزال[٤]". ثمّ يمجّد المعري ربّه قائلاً: "ذكر الله أعذب ما طُرح إلى الأفواه يا سعادة من شُغف به لسانهُ[٥]" ويدعو المعري النّاس إلى تقوى الله والابتعاد عن الكفر والإلحاد و هو أقسم بخالق الخيل والآبال المسرعة والريح العاصفة ليلاً أنّ الكافر يجرُّ وراءه البور والهلاك كما أقسم به جلّ جلاله أنّ عمر الإنسان سينتهي ويرى الإنسان نتيجة ما قدّم من الأعمال فيها: "أُقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرّحيل، تطلب مواطن حُلَيل، والرّيح الهابّة بليلٍ، بين الشَّرَطِ و مطالع سُهَيلٍ ، إنّ الكافر لطويل الويل، وإنّ العمر لمكفوف الذَّيلِ. "[٦]

---

[١]- المصدر نفسه، ص٣٥

[٢]- المصدر نفسه،.ص٤٩.

[٣]- المصدر نفسه، ص٦٢.

[٤]- المصدر نفسه، ٢١٩.

[٥]- المصدر نفسه، ص٢٨٩.

[٦]- المصدر نفسه، ص٣١٣.

ولذلك كان المعري خائفاً من ربّه وجلاً منه فظهرت هذه المخافة بصور مختلفة في كتابه فعلى سبيل المثال يسأل الله أن يرزقه في خوفه الإحسان إلى والده ثم يسأله تبارك وتعالى أن يهدي له تحية أبقى من خضرة الجَدب وأذكى من ورود الربيع وأحسن من بارقة الغمام تُضيءُ لها ظلمة القبر ويخضرّ لها تراب القبر. يقول المعري: "واجعلني في الدنيا منك وجلاً لأفوز في الآخرة بالأمان، وارزُقني في خوفك بِرّ والدي وقد فاد برّه إهداءُ الدعوة له بالغدوّ والآصال، فأهدِ اللهمّ له تحيةً أبقى من عروة الجدب وأذكى من ورد الربيع، وأحسن من بوارق الغمام تُسفِر لها ظلمة الجَدَث ويخضرّ أغبر السّفاة ويأرَج ثرى الأرض."[١]

ويتحدّث المعرّي ضمن كتابه عن صفات الله جلّ وعلا. حيث يقول: "إنّ الرفيع ليس بشفيع، و تلك صفة خالق الأوّلين لا مثل له ولا نديد[٢]". أيضاً يقول: "الملك لله راعي الغافلين الجبّار القديم"[٣]و"الله القديم الأعظم، وبحكمه جَرى القلم، ألّا يخلُدَ عالمٌ ولا علَمٌ."[٤] وفي ما مرّ من الكلام قد تحدّث المعري عن تسبيح العاقل وتمجيده لِلّه عزّ وجلّ وهنا نكتفي بهذا المقدار خشية الإسهاب.

٣-٢- تسبيح غيرالعاقل وتمجيده

تسبيح غير العاقل وتمجيده هذا هو عنوان القسم الآخر من الفصول والغايات وهنا يتكلّم المعري عمّا يسبّح الله ويمجّده نحو السيف، الفرس، القمر، الرعد، البرق، الطّير وما شاكل ذلك ممّا سنشير إليه فيما يلي. يرى المعري أنّ الحيوان و الجماد والنّبات كلٌّ يسبّح خالقه ويمجّده على سبيل المثال يحلف المعري بالسّيف القاطع والفرس الضبّار اللذين

[١]- المصدر نفسه، ص٣١٩

[٢]- المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

[٣]- المصدر نفسه، ص٣٧٨.

[٤]- المصدر نفسه، ص٣١٨.

يطيعان الله أنّ من أضاع عمره في اللهو واللّعب سيخيبُ: "أحلف بسيف هبّار وفرس ضبّار يدأبُ في طاعة الجبّار لقدخاب مضيع اللّيل و النّهار، في استماع القينة وشرب العُقار"[١] وفي موضع آخر يقول: إنّ أقاطيع الظّباء والبقر ويد الماشية ورجلها وأيضاً سوار النّساء وخلخالهن كلّها تشهد بالله جلّ وعلا: "سرب المومأة والإجل ويد الماشية والرّجل وسوار الكاعب والحجل يشهدنَ بإله أَعظمته نار رآها الشّمّاخ بالغُميم."[٢]

وفي موضع آخر يدقّقُ المعري في جميع حركات الفرس وأحواله ويقول إذا سَحَلَ الفرس فسحيله تمجيد لِلّه وإذا شحج فشحيجه هو تكبير وتهليل وقيام الفرس على ثلاث قوائمه في رأي المعري هو أيضاً تقديس لخالقه يقول المعري: "إن سَحَلَ فعن مجد الله ترجَمَ السحيل، وإن شَحَجَ فشحيجه تكبير و تهليل، وإذا صفن فصفونه تقديسٌ."[٣] و لم ينسَ المعري ذكر النجوم والكواكب في كتابه فيقول: "زُحَلٌ زنجي بين يديك، والمشتري عبدٌ لك مطيعٌ، والمريخ يتصرّف بين أوامرك ونواهيك، والشمس والزهرة أَمتانِ تَنصُفانِك، وعطارد والقمر مستخدمانِ، لايصلان إلى الإعتفاء."[٤] فرأى المعري أنّ الأنجم السبعة تنقاد لأوامر ربّها ونواهيه وتحدّث عنها ببراعة العالم الفلكي كأنّه قد تلقّى هذا العلم عن الآخرين.

وفي مكانٍ آخر يتحدّث المعري عن تسبيح الرّعد والبرق والرّيح المثيرة للغبرة وأيضاً عن تسبيح الحمام على الأغصان ويأمل أن يسبّح الله معها. يقول المعري: "ليتني سبّحتُ الله مع الرّعد القاصف، والبرق اللّاصف والهَبوب العاصف، والحمام الهاتف، على

---

[١]- المصدر نفسه، ص١١.

[٢]- المصدر نفسه، ص١٢.

[٣]- المصدر نفسه، ص٢١.

[٤]- المصدر نفسه، ص١٠٤

الغِصنَة الرِّطاب[١]" أيضاً يقول: "سَبَّحَ له زُرقة الأفق وزُرقة الماء وحُمرة الفجر وحُمرة شفق الغروب. "[٢]

وطيور السَّماء هي أيضاً مُسبِّحة ومُمَجّدة لربّها، يقول المعري: " وبك تُقِرّ النّسور: نسر جِرَبَة والواقف على النّبيلة."[٣] ويقول عن العقبان الّتي تطير على أعالي الجبال: "لاتُغفِلُ ذكر الله عُقابٌ تقطع البلادَ عُقَباً، باتَت في رأس جَبَلٍ فأَصبحت وكأنّما نَدَفَ عليها الضّريبُ عُطُباً."[٤]

فَلاحَظنا أنّ الفصول والغايات يحفل بالتّسبيح والتّمجيد لِلّه تبارك وتعالى من قبل العاقل وغيرالعاقل و قد أشار المعري إلى تسبيح الإنسان والجماد والنبات والحيوان لِلّه جلّ وعلا كأنّه بذلك قصد أن يفسِّر الآية الكريمة: "يسبّح لِلّه ما في السّموات وما في الأرض له المُلك وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. "[٥]

٤- الخاتمة:

لقد كان المعري من عظماء عصره الذي ترك عدداً ملحوظاً من المؤلفات نثراً ونظماً. والقارىء لآثار أبي العلاء ليتعجب من ثقافته الواسعة واطلاعه الشامل على كثير من علوم عصره. وهو بوضعه للفصول والغايات برز في جماعة الكتّاب كمن لا مثيل له.

وقد أورد المعري في كتابه المفردات الغريبة غير المبتذلة التي تكشف عن براعته العجيبة في رصف الكلمات واستخدامها ويُشاهَد فيه الإيقاعات التي تهتزّ لها الأسماع.

---

[١]- المصدر نفسه، ص١٠٥.

[٢]- المصدر نفسه، ص٣١٩.

[٣]- المصدر نفسه، ص٣٩٩.

[٤]- المصدر نفسه، ص ٤٨٨. الضّريب: الثلج و الصقيع. العُطُب: القطن.

[٥]- التغابن، ١.

والخيال يظهر في الفصول والغايات بمظهر آخر فالتشابيه والاستعارات والكنايات وأنواع المجاز تختلف عمّا كان لدى الآخرين من الكتّاب، والمعري أراد أن يبدع في صور الخيال المستخدمة في كتابه لأنّه يهدف إلى غاية كبرى هي الحديث عن تسبيح الله وتمجيده جلّ وعلا على لسان كلّ من الإنسان والجماد والنبات.

ربّما يرى الكثيرون أنّ الفصول والغايات لكثرة شروحه كتابُ لغة، والحال أنّ المعري أراد أن يفسّر الغريب وسائر الإشارات العلمية لغموضها. ولكنّنا إذا تجاوزنا الشروح لوجدنا أنفسنا أمام نصٍّ أدبي من طراز خاصٍّ، طراز الذكر والتّذكير. يمكن القول إنّ المعري قصد من خلال هدفه المنشود في فقرات كتابه أن يعلّم اللغة وعلومها من النحو والصرف وغريب المفردات والبلاغة مع الإلمام بمعارف كثيرة عن الحياة والأحياء.

إنّ الذكر والتذكير هو ما استحوذ على الفصول والغايات إلى أن قسّم الكتاب إلى قسمين من التذكير والتّمجيد هما: تمجيد العاقل لِله تبارك وتعالى وتمجيد غير العاقل لذاته جلّ وعلا. هذا ما تضمّنه الفصول والغايات بين دفّتيه. على الرغم ممّا يقال عن معارضة المعري لسور القرآن الكريم بالفصول والغايات فإنّه لم يعارض القرآن أبداً وكيف هو يعارض الذكر وإنّه في مواضع عديدة من كتابه يدعو الناس إلى الزهد والصّلاة والصوم والفعل الحسن وأيضاً إلى ذكر الله جلّ جلاله وتسبيحه.

المصادر والمراجع

١- ابن خلّكان، أبوالعباس شمس‌الدين، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق إحسان عبّاس، الطبعة الأولى، بيروت، دار الثّقافة، دون التاريخ.

٢- أحمد، بدوي أحمد، *أسس النّقد الأدبي عند العرب*، الطبعة الاولى، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٤ م.

٣- التفتازاني، سعدالدين، *مختصر المعاني*، الطبعة الاولى، قم، دارالفكر، مطبعة القدس، ١٤١١هـ.

٤- الجرجاني، الشيخ الإمام عبدالقاهر، *أسرار البلاغة*، تحقيق محمد الفاضلي، الطبعة الثالثة، بيروت، المكتبة العصرية صيدا، ٢٠٠١ م.

٥- جمع من المؤلّفين، *تعريف القدماء بأبي العلاء*، القاهرة، الدار القومية للطّباعة والنشر، ١٩٦٥م.

٦- الجندي، محمدسليم، *الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره*، تعليق وإشراف عبدالهادي هاشم، الطبعة الثانية، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢م.

٧- حسين، طه، *گفت وشنود فلسفي در زندان أبوالعلاء معري*، ترجمه حسين خديوجم، چاپ اول، تهران، انتشارات زوار، ، ١٣٤٤ هـ.ش.

٨- حسين، طه، *المجموعة الكاملة "قسم مع أبي العلاء في سجنه*، المجلد العاشر، دون التاريخ.

٩- الحمصي، محمد حسن، *القرآن الكريم مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ*، ط١، ١٩٩٩.

١٠- ضيف، شوقي، *تأريخ الأدب العربي*، عصر الدّول والإمارات، الطّبعة الثانية، الشام، القاهرة، دار المعارف، دون التاريخ.

١١- ضيف، شوقي، *الفن و مذاهبه في النثر العربي*، الطبعة الثامنة، دارالمعارف، مصر، د.ت.

١٢- العشماوي، محمد زكي، *قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث*، بيروت، دار النّهضة العربية للطباعة و النشر، دون تاريخ.

١٣- گروهي از نويسندگان، *دائرة المعارف بزرگ اسلامي*، چاپ اول، مركز دائرة المعارف بزرگ اسلامي، تهران، ١٣٧٣ هـ . ش.

١٤- المعري، ابوالعلاء، *ديوان لزوم ما لايلزم*، تحقيق و تعليق عمر الطّباع، بيروت، شركة دار الارقم، دون تاريخ.

١٥- المعري، ابوالعلاء، *الفصول والغايات*، تحقيق محمود حسن زناتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

١٦- الميمني الرّاجكوتي الأثري الهندي، عبدالعزيز، *أبوالعلاء وما إليه*، بيروت، دارالكتب العلمية، دون تاريخ.